المحاضرة الرابعة

تاريخ الادب

أما وقد أوجزت في الكلام على الادب وتدريسه ، وعلى الذوق وتثقيفه ، ولمحت الى تمازج الثقافات ، فبينت دون شيء من الإسهاب كيف يأخذ بعض الامم عن بعض ، ويقتبس بعضها من بعض ، فيزيد هذا الاقتباس في عبقرية البشر ، اما وقد فرغت من هذا كله ، فقد لزمني على ما أعتقد ان أخوض في الموضوع الذي انتدبت اليه وهو تاريخ الأدب ، وما تاريخ ادب العرب الا تسلسل قرائحهم وبنات افكارهم من يوم ظهر هذا الشعب الكريم على وجه الارض حتى يومنا هذا ، ماتاريخ الادب في الحقيقة الا سلسلة آثار ، اذا نظرنا اليها وجدنا فيها سلاسل شتى : سلسلة آثار مؤلف من المؤلفين ، سلسلة آثار عصر من العصور ، سلسلة آثار تطور الادب في خلال القرون الخالية ، ماتاريخ الادب الا النظر في تأثير بعض المؤلفات في بعض واتصال بعضها ببعض وتسلسلها في تعاقب الاحقاب ، هذا هو تاريخ الادب ومن هذين السطرين يتبين لكم حرج الموضوع وضيق مذاهبه ، وتبدو لكم سعة مجاله وترامي اطرافه في وقت واحد ، اما حرج الموضوع فانه ناشيء عن فقدان ما يجب علينا ان نتوسل به من الوسائل الى معرفة قرائح العرب ونتائج عقولهم على حسب روح هذا العصر ، واما سعة المجال فحسبكم ان تجدوا في تاريخ ادب العرب صورا ناطقة تفصح لكم عن اطراد آثار عبقريتهم في مطاوي الاحقاب .

ما طالعت مقدمة من مقدمات تاريخ الادب الفرنسي الا وقع نظري على عبارة تدخل الخوف على قلب من يتفرغ لتدريس تاريخ الادب حتى يتهيب الموضوع فيكاد يمسك عن الكلام لدهشه وتحيره ، فقد وجدت في احدى المقدمات هذه العبارة : تاريخ الادب الفرنسي انما هو نتيجة حياة باجمعها او تكفي حياة باجمعها حتى يتم مثل هذا التاريخ ، واذا انتظر المؤرخ نتائج بحثه وتقيبه ليشرع في موضوعه ، أفيكتب هذا التاريخ

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على انه يجب على المؤرخ ان يعمل على قدر مجهوده دون شيء من الاوهام .

وقال الاستاذ برونتير في نقده مذهب سانتبوف : وعلى هذا فان دراسة كاتب كبير ان لم تستغرق حياة برمتها استغرقت سنين طويلة .

هذا قول كتاب اذا أحبوا ان يكتبوا في تاريخ الادب وجدوا السبيل ممهدة فما نقول لكتاب تعترضهم العقبات وتحيط بهم المصاعب فتقف اقلامهم لتحيرها ، الموضوع حديث لم يكتب العرب فيه على حسب روح هذا العصر وانما كتبوا باساليب لا تناسب اوضاع هذا العصر ، مات فلان سنة كذا ... ومن قوله في وصف كذا ... وله تشبيهات فريدة ... كل هذا ليس من تاريخ الادب في شيء ، واذا كنا نجد بين نقاد المتقدمين من ارتفع الى منزلة أعلى ، وحلق في جو أفسح كالجرجاني في وساطته ، وكالثعالبي في كلامه على المتنبي ، او كغيرهما فهذا قليل على ان نقد الادب شيء وتاريخه شيء آخر .

قلت في صدر الحديث : تاريخ ادبنا ضيق المذاهب ، فلنبحث عن شيء من هذا الضيق ، اذا اخذتم تاريخ ادب عربي وجدتم في فاتحته وصف اول هذا الادب كيف ولد وكيف عاش ، فلا يستغني المؤرخ عن التنقيب عن لغة قومه ، كيف نشأت هذه اللغة وما هو اصلها ومنحدرها وما هي عناصرها ، لا يستغني المؤرخ عن هذا كله حتى يستطيع ان ينظر في تسلسل الآثار العقلية نظراً ثاقباً ويحيط بمختلف العوامل التي عملت في هذه الآثار ، فيكون مثله في ذلك كمثل المؤرخ الطبيعي فكما ان هذا المؤرخ يصف اتصال المخلوقات الحية في الطبيعة بعضها ببعض على صورة مرتبة فكذلك يجب على المؤرخ الادبي ان يبين كيف تسلسلت آثار عبقرية قومه والتحق بعضها ببعض من مبادئها الى خواتيمها ، أفيتيسر لنا في حالتنا هذه ان نعرف شيئاً عن مبدإ لغتنا فنعرف كيف ولدت الفاظها وكيف عاشت كما يعرف الفرنسيون مثلاً كيف تحدرت لغتهم من الاصل اللاتيني؟

كنت أذاكر مرة في امر لغتنا الكريمة أستاذاً مطلعاً على اللغات السامية فقلت له في جملة ماقلت : وددت لو اننا نعرف كيف ولدت لغتنا في اول امرها كما يعرف بعض الافرنجة كيف ولدت لغاتهم ، فقال : هذا امر ممتنع الآن ، ان بعض الافرنجة شهدوا ميلاد لغاتهم فدوّنوا آثارها وتعهدوها فكان مثلهم في ذلك كمثل من يغرس شجرة ثم يتعهدها حتى تورق وتزهر وتثمر ، اما نحن معاشر الساميين ، فاننا لم نشهد ميلاد لغاتنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا نستطيع ان نعرف اليوم كيف اورقت هذه الشجرة السامية وكيف ازهرت وكيف أثمرت وبيننا وبين الذين غرسوها وتعهدوها أحقاب متطاولة وعصور متراخية ، خفيت علينا حتى اليوم آثارها ورسومها فلا نعرف عن هذه الاحقاب شيئاً . —

هذا صحيح ، والغريب انكم تجدون من كان يعتقد ان لغة العرب قد تكاملت دفعة واحدة دون شيء من التدريج ومنهم (رنان) فقد قال :

« من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب اظهار سره ، انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء فبدت فجأة غاية في الكمال سلسلة غنية واي غنى ، كاملة بحيث انها من ذلك العهد الى يومنا هذا لم يدخل عليها اقل تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ظهرت لاول امرها تامة ، ولا ادري هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الارض دون ان تدخل في اطوار مختلفة » .

وانا لا ادري كيف صدر هذا الكلام عن رجل مثل رنا ، اي شيء يتكامل في الطبيعة فجأة ، مثل اللغات كمثل المخلوقات الحية في عالمي الحيوان والنبات فكما ان الحيوانات والنباتات تولد فتعيش فتموت فكذلك اللغات فانها أشبه شيء بهذه المخلوقات ، اما قول (رنان) ليس للغة العرب طفولة ولا شيخوخة فهو مخالف لاصول العلم ، للغة العرب عهد طفولة ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذا العهد ، لبعده عنا وخفاء رسومه علينا ، فلا يمكن ان تكون لغة جاهليتنا متكاملة على صورتها هذه من دون ان يتسلسل فيها هذا التكامل عصوراً متطاولة صقلت اللغة وحنكتها حتى طلعت علينا في حلتها الانيقة ، وقد اشار بعض شعراء الجاهلية الى ذلك في شعرهم ، أفأجد حاجة الى ذكر قول عنترة :

(هل غادر الشعراء من متردم)

اول قول امرئ القيس :

(عوجا على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام)

او قول زهير :

(ما ارانا نقول الا معادا او معادا من قولنا مكرورا)

فالذي يستنبط من كلام عنترة وامرئ القيس وزهير ، انه جاء قبلهم شعراء جالوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الشعر كل مجال وحاقوا في سمائه كل محاق ، وقد انقطعت عنا اخبار الذين اورثوا عنترة وامرأ القيس وزهيراً وامثالهم فيض قلوبهم وصوب اذهانهم ، وانطوت آثارهم فلا نعرف عنهم شيئاً ، فلغة العرب متقادمة العهد فلا يمكن ان تنشأ دفعة واحدة على الصورة التي نشأت عليها في العصر الجاهلي المعروف ، فلا ريب في انها قد سبقتها احقاب مديدة ، انتقلت فيها اللغة من طور الى طور ، حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، فالعصور التي انتقلت اللغة في اثنائها من مرتبة الى مرتبة غامضة مبهمة فهي سر من الاسرار وهذه ثلمة في تاريخ ادبنا ، ولا تسد هذه الثلمة الا اذا درسنا اللغات السامية ولغات الامم التي خالطها العرب في قديم الدهر وعثرنا على كتابات قديمة منقوشة ، ان لغة العرب لم تنته الينا بجذافيرها ، فان الذي جاءنا عن العرب غيض من فيض فكثير من الكلام ذهب بذهاب اهله . قال ابن فارس : ذهب علماؤنا او اكثرهم الى ان الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الاقل ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير .

تصوروا بعد هذا كله حرج موضوعنا وضيق مذاهبه ، اني لا اجد لذة في تاريخ الادب الا اذا عرفت اوائل الآثار واواخرها ، ومبادئ المصنفات وخواتيمها ، واستطعت ان اصل الاواخر بالاوائل واربط الخواتيم بالمبادئ حتى اعلم كيف تسلسلت ثمرات القرائح ونتائج الخواطر ، وكيف اثّر بعضها في بعض وتحدر بعضها من بعض فاذا لم يتهيأ لي شيء من ذلك كان العلم ناقصاً . —

على ان هذه العقبة التي تعترضنا في سبيلنا ليست فريدة فان من ورائها عقبات غيرها ؛ اظن انكم تذكرون قولي في ثقافة الذوق : لا بد لنا من معرفة العصر الذي ندرس شاعراً من شعرائه ، فلا بد لنا من معرفة مصطلحات هذا العصر والافكار التي ولدها هذا الشاعر في عصره والعواطف التي أيقظها ، فاذا كنا ندرس شعر المتنبي ، ووقع نظرنا في شعره على لفظة (ابتشاك) ومعناها : الكذب ، وهي لفظة غريبة فكيف نجزم امر غرابتها اذا لم يكن في لغتنا معجم يشير الى تاريخ الالفاظ ، كيف نعرف ان لفظ الابتشاك كان غريباً في عصر المتنبي اذا لم يكن في لغتنا معجم يبين لنا ان هذا اللفظ استعمل في عصر كذا ثم بطل استعماله بعد ذاك العصر ، فاذا كان في لغتنا معجم لغوي تفسر فيه الألفاظ بحسب تاريخها استطعنا ان نجزم امر غرابة الألفاظ ، فلا نسير في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لتقيبنا واستقصائنا على غيرهدى وانما نستند الى مصادر موثوق بصحتها ، فنقطع دون شيء من الحيرة والارتباك فلا يزال تاريخ ادبنا مثلوم الجوانب فاذا كنا نبحث عن شاعر من الشعراء فقد لزمنا في مثل هذه الحالة ان نقرأ شعر اهل عصره كلهم ، حتى نعرف مصطلحات ذاك العصر ، وهل يتيسر شيء من ذلك ؟ فاما ان ينوئنا البحث عن هذا الامر ، واما ان نستعين عليه بالكتاب الذين ظهروا في ذاك العصر واشاروا الى غرابة الفاظ شاعر من شعراء عصرهم ، فاذا لم يكن شيء من ذلك بقيت في تاريخ ادبنا زاوية فارغة . —

ولو جاوزنا هذه العقبة لاعترضتنا عقبة غيرها فان في تاريخ ادبنا شيئًا من الغموض نشأ عن ان طائفة من الاسماء اطلقت على مسميات لانرى لها اثراً في هذا العصر ، لنضرب مثلاً لذلك فقد قرأت في بعض كتب الادب هذا الكلام : دخل الاحنف بن قيس على معاوية وافداً لاهل البصرة ودخل معه النمر بن قطبة وعلى النمر عباءة قطوانية وعلى الاحنف مدرعة صوف وشملة ، فالعباءة القطوانية منسوبة الى قطوان — موضع بالكوفة — منه الاكسية ، غير اننا لا نعرف شيئًا عن نوع هذه العباءة وكذلك المدرعة فانهما ثوب ولا يكون الا من صوف ومن الذي يعرف هيأة هذا الثوب[1] .

فانتم تجدون في سطر واحد كلمتين اوثلاث كلمات تدل على مسميات نكاد لا نعرفها ففي لغتنا كثير من الاسماء اطلقت في القرون الخالية على مسميات ثم انطوت تلك القرون فذهبت بذهابها المسميات وبقيت الاسماء في بطون المعاجم تدل على اشياء لا نعلمها ، وقد كانت هذه الاسماء وضعت للدلالة على انواع من السلاح واللباس والطعام والشراب والدراهم وماشابه ذلك ثم ذهب الذين كانوا يتقلدون هذا السلاح و يلبسون هذا اللباس و يأكلون هذا الطعام و يشربون هذا الشراب و يضربون هذه الدنانير والدراهم ، فذهبت بذهابهم مسمياتهم وبقيت الاسماء وحدها فلا تزال طائفة من ادبنا غامضة بعض الغموض .

(١) اخترت هذه الاسماء عرضًا وقد يجوز ان تكون مسمياتها معروفة في بعض قبائل دية الشام على ان في لغتنا اسماء كثيرة غيرها لا تعرف مسمياتها . فكتب الادب ومعجمات اللغة مملوءة بهذه الاسماء في كل عصر من عصور اللغة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما اردت الاستقصاء في البحث عن ثلم تاريخ الادب وانما احببت ان المح الى طائفة من هذه الثلم ، حتى ندرك مبلغ ما يقف في سبيل المؤرخ الادبي من المصاعب التي يستعصي عليه تذليلها ، واني لأجد الى جنب هذه العقبات عقبات غيرها لا بأس بالاشارة اليها .

اقتصر الذين كتبوا عن مؤلفي العرب على ذكر اليسير من آثار حياتهم العامة وحياتهم الخاصة فذكروا ميلادهم ووفاتهم ولمعاً من اخبارهم وقد ورد قليل من النقد في تضاعيف كلامهم ، وما عدا ذلك فاننا لا نكاد نحيط بشيء من آثار حياة مؤلفي العرب فلا نعرف مثلاً كيف ولد هذا المؤلف وكيف عاش وكيف رباه اهله حتى نشأ وترعرع ، لا نعرف كيف كانت حياته في مدرسته وما هي اخلاقه واوضاعه وعاداته ومذاهبه واهواؤه ، وما هي وجهته في حياته ، ما هي انباؤه الخاصة والعامة ، ما هي هيئته وصورته ، ما هي ملابسه ، ما هي الكتب التي كان يقرؤها . كل هذا ينفعنا في تاريخ الادب حتى تنكشف لنا اسرار المؤلفين فنستعين بذلك على العلم بافكارهم وعواطفهم ، ونحل عقد هذه الافكار والعواطف في اثناء بحثنا عن آثار عقولهم وألبابهم ، وهذا النوع من المعرفة عنصر من عناصر التمحيص والتدقيق . فاذا فاتنا هذا العنصر اضطررنا الى النظر في آثار المؤلف نفسها لانها تدل على فكره وعلى عاطفته وعلى روحه ، الا اننا قد نضطرب في خلال البحث والنظر اضطراباً نقف فيه حائرين فلو كنا نعرف دقائق حياة المؤلفين لما اضطربنا هذا المضطرب ، وقد استدرك هذا الامر طائفة من المؤلفين في هذا العصر فكتبوا تراجمهم باقلامهم ووصفوا دقيق حياتهم وجليلها وكشفوا الغطاء عن كثير من امورهم ، والمرء اذا صدق اعلم بظواهره وبواطنه ، وادرى بفضائله ورذائله ، وافطن لمواطن القوة والضعف فيه ، فضلاً عن اللذة التي نجدها في قراءة هذا النوع من التراجم ، فانها نزهة العقول وسلوة القلوب فكأننا بمحضر رجال قد باحوا باسرارهم فنكاد نشهد حركاتهم وسكناتهم ونكاد نسمع صوتهم وكلامهم ونرى ابتساماتهم وتقطيبهم ونشاركهم في آلامهم وأفراحهم وما شابه ذلك . —

قال « سانتبوف » في كلامه على هذه التراجم :

« احببت في كل حين مراسلات اكابر الكتاب واحاديثهم وافكارهم ، احببت تفاصيل طبائعهم واخلاقهم وتفاصيل تراجمهم التي كتبوها ، فان الباحث يعكف خمسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عشر يوماً على آثار ميت مشهور سواء أكان هذا الميت شاعراً ام فيلسوفاً ، فيدرسه ، ويقلب النظر فيه ، ويسأله ماشاء من المسائل ، ويجعله قبالة عينيه » .

هذه طائفة من نواقص تاريخ ادبنا ولو شئت لأتيتُ على ذكر غيرها من النواقص ، وانما مرادي ببيان ما يباغت المؤرخ من بعض المصاعب على ان التلوّم في التفرغ لوضع تاريخ الادب لا طائل فيه ، فاذا ظللنا ننتظر فاننا لا نصنع شيئاً ، اذا كنا ما ننفك نردّد ان تاريخ الادب يستغرق وضعه سنين طويلة فقد تمر هذه السنون من دون ان نشرع في الوضع ، فاذا اخرج شيوخ الادب مكنونهم واستنفدوا وسعهم فتصدى كل منهم لمادة من المواد ، وعمل على قدر مجهوده ، هيأنا تاريخ الادب ومتى تهيأ تاريخ ادب العرب استطعنا ان نحيط بتسلسل آثارهم وافكارهم وقرائحهم من اول امره الى آخره .

دمشق : في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net